في وزارة المعارف

سرعة وبطء

طه حسين
جريدة السياسة
٣١ ديسمبر ١٩٢٣

الناس مجمعون على أن في وزارة المعارف حياة بعد موت، أو حركة بعد سكون على أقل تقدير، ولكنهم يختلفون في هذه الحركة، فيراها بعضهم سريعة سرعةً تحول بينها وبين الإجادة والإتقان، ويراها بعضهم بطيئة بطأً قد لا يُمكِّنها من الوصول إلى بعض ما تريد.

وليس عجيبًا أن يُجمع الناس على أن وزارة المعارف حية متحركة في هذه الأيام، فما نعلم أن الناس سمعوا بوزارة المعارف، أو تحدثوا عنها، أو اتخذوها موضوع المناقشة والجدال كما يسمعون ويتحدثون، وكما يناقشون ويجادلون في هذه الأيام. ففي كل يوم تظهر حركة جديدة في الوزارة، وفي كل يوم يتحدث الناس بمشروع جديد للوزير؛ حتى تناولت هذه الحركات والمشروعات جميع فروع الوزارة العلمية، وحتى كان لها صدًى قوي في الجمهور من جهة، وبين الموظفين والمعلمين والطلبة من جهة أخرى.

فالناس جميعًا يتحدثون بوزارة المعارف، وما تعمل وزارة المعارف، وما تريد أن تعمل وزارة المعارف. ليس عجيبًا أن يجمع الناس على أن في هذه الوزارة حياة وحركة، وليس عجيبًا أن يختلف الناس في أن هذه الحركة سريعة أو بطيئة. فالحق أن هذه الحركة سريعة جدًّا، وبطيئة جدًّا في وقت واحد؛ ولهذا نكتب اليوم.

نريد أن نلفت الوزارة إلى أن من الخير أن تقتصد في هذه السرعة، وإلى أن من الخير أن تتعجل من هذا البطء؛ فكما أن المُنْبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى، فالواقف لا يتقدم، والمقيم لا يسعى. ومن الحق أن تسعى الوزارة، ولكن في أناةٍ ومهل، وعن بصيرة ورشد. وليس يرضينا ولا يرضي وزير المعارف أن تجري وزارة المعارف أو تعدو عدوًا، فتمر الأشياء مرًّا دون أن تملأ منها عينيها، وتستعرضها استعراضًا دون أن تتقنها بحثًا وفهمًا، ثم ليس يرضينا ولا يرضي وزير المعارف أن يكثر الحديث عن هذه الوزارة والجدال في أمرها دون أن يعتمد هذا الحديث والجدال على شيءٍ مفيدٍ حقًّا، نافعٍ حقًّا، باقٍ لا يتغير ولا يزول بمجرد أن يتغير الوزير أو تستقيل الوزارة. كل هذا لا يرضينا ولا يرضي الوزير.

وإنما الذي نريده ونعتقد أن الوزير يريده أيضًا هو شيء آخر غير هذه الحركة التي يتحدث عنها الناس، والتي نخشى ألَّا تُنتِج نتيجة

قيمة. نريد أن توضع في هذه الوزارة أسس الإصلاح على أن تكون هذه الأسس متينة تستطيع أن تحمل ما سيُقام عليها غدًا. فإذا بحثنا عما تحتاج إليه وزارة المعارف من الإصلاح رأيناه كثيرًا، وكثيرًا جدًّا، أكثر من أن يقوم به وزير واحد في عام أو أعوام، فضلًا عن شهر أو أشهر. فليس لدينا فرع من فروع التعليم إلَّا وهو إلى الفساد أقرب منه إلى الصلاح، وقل مثل هذا في فروع الإدارة المتصلة بهذه الفروع التعليمية. وقد بيَّنا غير مرة أن ليس في هذا شيء من العجب، فما كان ينبغي أن ننتظر من الإنجليز غير هذا.

وجوه الإصلاح في وزارة المعارف إذن كثيرة مختلفة، ومن المعقول أن ينظر إليها الوزير النشط المخلص، فيحاول أن يعمد إليها جميعًا بالإصلاح، ولكن من المعقول أيضًا أنه إن فعل وأراد أن يصلح كل شيء في وقت واحد، فقد ينتهي إلى ألَّا يصلح شيئًا؛ ولهذا اقترحنا غير مرة على وزير المعارف أن يُعنى بطائفة معينة من المسائل يتقنها درسًا وتمحيصًا، ثم إصلاحًا وترتيبًا، فإذا وفِّق إلى الخير في هذه المسائل المعينة كان قد أدَّى لبلده أعظم خدمة أدَّاها وزير معارف إلى الآن، وكان قد مهَّد لوزارته سبيل الرقي، ورسم لخلفائه خطة الإصلاح.

اقترحنا على وزير المعارف طائفة من المسائل عنيَ ببعضها، ويظهر أنه لم يجد من الوقت ما يمكِّنه من العناية ببعضها الآخر، ويظهر أنه يريد هذه العناية، ولكنه يريد أن يفرغ مما يشغله الآن، ومع ذلك فهذه المسائل التي لم يعلن بها الوزير بعدُ قد تكون أجلَّ

خطرًا، وأبعدَ أثرًا في التعليم وإصلاحه من كل المسائل الأخرى التي تشغل الوزارة في هذه الأيام.

يقول المثل: إنك لا تجني من الشوك العنب، ولست أريد أن وزارة المعارف كلها شوك، ولكني أريد أن وزارة المعارف إن أرادت أن تصل بالتعليم إلى الخير، فمن الواجب عليها قبل كل شيء أن تضع من النظم وتؤلف من الإدارات ما من شأنه أن يصلح التعليم، وينتهي به إلى الخير حقًّا؛ لهذا لا نستطيع أن نفهم كيف لا تفكر الوزارة بالفعل في الملاءمة بين إدارتها وما تقصد إليه من الإصلاح؟ كيف لا تفكر مثلًا في إنشاء ما اقترحنا عليها إنشاءه من إدارات التعليم المختلفة المستقلة التي يشرف عليها الفنيون حقًّا؟ كيف لا تفكر مثلًا في إنشاء إدارة صالحة بالفعل للتعليم الثانوي، يعمل فيها رجال فنيون قد درسوا هذا النوع من أنواع التعليم، فأحسنوا درسه، وبلوا خيره وشره، واستطاعوا بعد الدرس والتجربة أن يشيروا عن علم، ويعملوا على بصيرة؟ وقل مثل هذا في بقية إدارات التعليم القائمة، أو التي يجب أن تقوم في وزارة المعارف.

ولكن التعليم الثانوي يعنينا بنوع خاص اليوم، فإن تعليمنا الثانوي لا يمكن أن يوصف بأقل من أنه خزي لمصر، لا يليق بحاجاتها، ولا يليق بكرامتها، ولا يليق بذكاء أبنائها واستعدادهم للعلم، ثم لا يليق ببلد يريد أن ينظم التعليم العالي، ويشرع بالفعل في إنشاء جامعة على نحو الجامعات الأوروبية الكبرى.

نعم، تعليمنا الثانوي خزي لمصر، وأعتذر إلى وزير المعارف وأعوانه من استعمال هذا اللفظ الجاف، فأنا مضطر إلى استعماله، وليسوا هم الذين ابتدعوا هذا التعليم، وإنما ابتدعه الإنجليز. فإذا كان التعليم الثانوي خزيًا، فإثمه على مبتدعيه، ولكن إذا لم نسارع نحن إلى إصلاحه، فقد نشارك الإنجليز في إثم هذا الخزي.

تعليمنا الثانوي خزي، ولست أريد أن أدخل في تفصيل هذا التعليم، وإنما يكفي أن أشير إلى أن لدينا مئات، بل ألوفًا من الذين يملكون شهادتنا الثانوية، ويجهلون الجهل كله كيف يتنفسون، أو كيف يهضمون ما يأكلون ويشربون، ثم يجهلون الجهل كله كيف يفكرون وكيف يحفظون، بل يعجزون العجز كله عن أن يتحدثوا إلى تلميذ خارج من المدارس الأولية في أوروبا. ولا تظن أن في هذا شيئًا من المبالغة، بل ثِقْ أنه دون الحقيقة، ودون الحقيقة بكثير، فيكفي أن تتحدث إلى صبيان الفرنسيين والإنجليز حين يفرغون من التعليم الأولي، ويستقبلون التعليم الثانوي؛ لترى من استعدادهم وفطنتهم وقدرتهم على الفهم، وإلمامهم بكثير من الأشياء ما يُزري بشبابنا المصريين الذين أتموا التعليم الثانوي واستقبلوا التعليم العالي؛ ليتخصصوا في التربية، أو في القانون، أو في الطب، أو في الهندسة.

ولست أدري أيجدون في التعليم العالي ما لم يجدوا في التعليم الثانوي، لست أدري أيدرسون في المدارس العليا شيئًا من منافع الأعضاء مثلًا ليعلموا كيف يتنفسون وكيف يهضمون، ولكنني أعلم أن من الشرِّ أن يُحال إلى المدارس العليا ما من شأنه أن يدرَّس في المدارس الأولية والثانوية. ولقد نعمل الآن لتنظيم التعليم المتوسط للجامعة، فمن المؤلم جدًّا ما نلاحظه في كل حين من ألوان الضعف والفساد في التعليم الثانوي الذي يحتاج إلى إصلاح، وإلى إصلاح في التعليم المتوسط يوشك أن يجعل هذا التعليم المتوسط بعيدًا كل البعد عما يليق بالجامعات. أخشى أن يكون تعليمنا المتوسط عبارة عن فصل من تعليمنا الثانوي، وإذن فلن يكون خطوة بالتعليم إلى الإمام كما يقولون.

نعم «تعليمنا الثانوي خزي»، وكيف لا يكون خزيًا وقد سألت مرة أحد الذين كانوا يتقدمون للشهادة الثانوية عن موقع أثينا، فزعم لي أنها في صقلية؟ ولا تذكر التاريخ وتاريخ مصر بنوع خاص، ولا تذكر اللغة العربية وآدابها، ولا تذكر اللغات الأجنبية وآدابها، ولا تذكر العلوم على اختلافها، فحظُّ مدارسنا الثانوية من هذا كله طائفة من الألفاظ التي تحفظها الذاكرة دون أن تصل إلى العقل فتنميه أو إلى القلب فتُحْييه.

مدارسنا الثانوية معامل يمرن فيها الطلاب على أن يستظهروا طائفة من الدروس إلى أجل، فإذا انقضى هذا الأجل نسوا ما كانوا قد استظهروا، ولم يبق لهم منها إلَّا الغرور؛ لأنهم يعتقدون أنهم

تعلموا فارتقوا وتفوقوا على غيرهم، ويسيرون سير المتعلم الراقي المتفوق. فهم مغرورون بأنفسهم، وهم مخدوعون عن أنفسهم لا أكثر ولا أقل. فإذا أردت أن تمتحنهم حقًّا؛ أن تمتحن عقولهم وقلوبهم وملكاتهم العملية، فلن تجد شيئًا ما ... وسل نظَّار المدارس العالية وأساتذتها، وسل رؤساء الدواوين في الحكومة، وسل الآباء، وسل الأصدقاء؛ تجد أنَّا لم نخدعك ولم نسرف في وصف سوء التعليم الثانوي، وإنما قصرنا فيه تقصيرًا شديدًا.

وإذن، فكيف نستطيع أن نصبر على هذه الحال؟ وكيف نستطيع أن نُعنى بإنشاء المدارس الثانوية، وتوسيع نطاقها، والإكثار من عدد تلاميذها، وتنويع امتحاناتها، دون أن نُعنى قبل كل شيء بإصلاح هذه المدارس؟ وأيهما خير: أن يكون عدد المدارس الثانوية قليلًا، ونتائجها قيمة تنفع وتلائم الكرامة، أم أن يكون عدد المدارس كثيرًا، ونتائجها رديئة مخزية؟ أيهما خير: أن يكون لدينا ألف تلميذ أتمُّوا دراستهم الثانوية ففتحت عقولهم للحياة، يفهمونها ويحسنون تصورها، وصلحت أخلاقهم، ورقَّت قلوبهم، واستعدوا لاستقبال ما في الحياة من خير وشر، ومعالجة ما فيها من سهل وعسير، أم أن تكون لدينا آلاف مؤلفة من حملة الشهادة الثانوية، كل ما أحسنوه أنهم مغرورون بأنفسهم، مخدوعون عنها، لا يعلمون من أمرها شيئًا، ولا يعلمون من أمر الحياة حولهم شيئًا؟

أترى أن وزارة المعارف مسرعة جدًّا وأنها مبطئة؟ مسرعة حين تبذل ما تملك من جهد وقوة لتكثر عدد المدارس الثانوية، وتوسع نطاقها، وتحشر فيها المئات والآلاف من التلاميذ، مبطئة حين لا تُعنى منذ الآن بدعوة الفنيين من أهل أوروبا ليعينوها ويشيروا عليها في إصلاح هذا التعليم الثانوي؛ حتى تصبح مدارسنا الثانوية معاهد لتربية الملكات والعقول لا لمسخها وإفسادها.

وزارة المعارف معذورة في إسراعها، فالناس يريدون أن يتعلموا وهم كثيرون، وهي لا تستطيع أن تغلق في وجوههم أبواب المدارس، ولا تستطيع أن تقف مغلولة أمام هذه الأسر الكثيرة التي تريد أن تعصم أبناءها من الجهل، فهي إذن مضطرة إلى أن تنشئ المدارس، وتوسع نطاقها، وتقبل فيها المئات، وهي مضطرة أيضًا إلى أن تعطي الناس ما عندها. فليست في يد وزير المعارف تلك العصا السحرية التي تستطيع أن تمس المدارس، فتصلحها بعد فساد، وترقيها بعد الانحطاط، ولكن وزارة المعارف ليست معذورة في إبطائها، فقد نستطيع أن نفهم أشياء كثيرة قبل أن نفهم الأسباب التي تحول بين وزارة المعارف وبين الشروع بالفعل اليوم، أو غدًا، أو بعد غدٍ، على أكثر تقدير، في إصلاح التعليم الثانوي ودعوة الفنيين القادرين على هذا الإصلاح.

لا نستطيع أن نفهم هذه الأسباب، فوزارة المعارف مقتنعة بفساد التعليم الثانوي، ووزير المعارف مقتنع بوجوب الشروع في إصلاح التعليم الثانوي، وليس من شأن هذا الإصلاح أن يكلف

الحكومة من النفقات فوق ما تطيق الآن، فستمضي سنة على أقل تقدير في البحث والتفكير قبل الشروع في التنفيذ الذي يحتاج إلى النفقات، وسيكون للحكومة من المهلة ما تستطيع معه أن تدبر الأموال؛ إذن فليشرع وزير المعارف في إصلاح التعليم الثانوي، ولينحو وزير المعارف هذا النحو نفسه في إصلاح فروع التعليم المختلفة. ومعنى هذا واضح جلي، وهو أن وزير المعارف إن أراد أن يصلح وزارته حقًّا، فعليه أن ينشئ فيها إدارات مستقلة يشرف عليها المصريون، ولكن يشير عليهم فيها الفنيون من أهل أوروبا.